منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5033) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (29) ايلول 2021

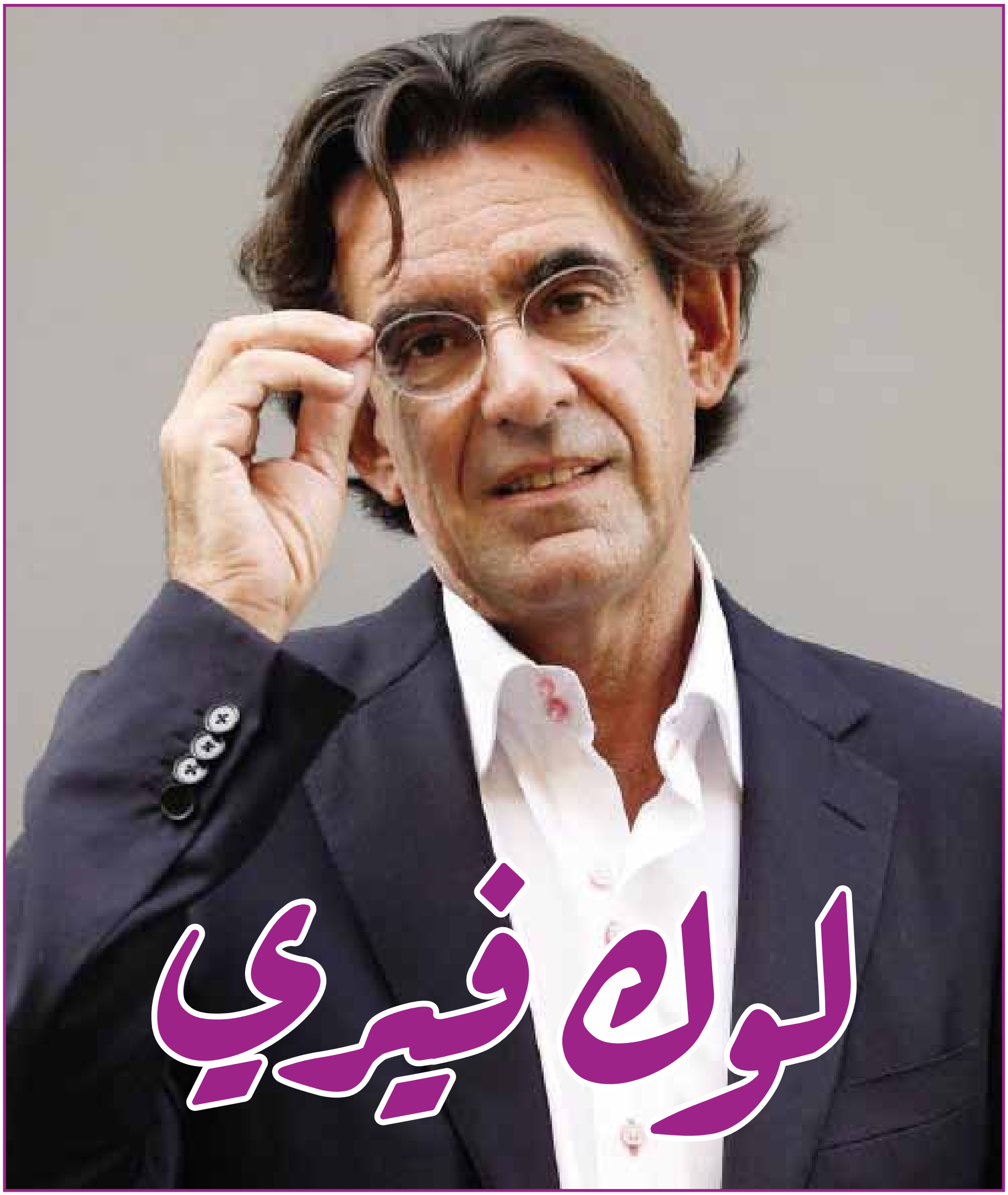

لوك فيري

لماذا التعرف على أرسطو يجعلنا سعداء؟

علي حسين

> يستعير الفرنسي لوك فيري في كتابه " تعلم الحياة " فكرة ارسطو من أن هدف الفلسفة هو البحث عن الحياة الجديدة التي ينبغي ان يعيشها الانسان، كان أرسطو يؤمن بان الحياة الحقة تكمن في تحقيق الانسجام مع العالم الذي يشترط ارسطو ان يكون منسجما ايضا.. هذا العالم المنسجم والعادل والجميل هو الذي شكل في نظر ارسطو ومن قبله استاذه افلاطون النموذج الحقيقي لنشر المدنية.. ورغم أن أرسطو كان تلميذا لأفلاطون، غير أن أفكارهما كانت مختلفة عن بعضها البعض، لم يكونا يرددان نفس العبارات. كان لكل واحد منهما فلسفته الخاصة، كان أفلاطون مهتما بالتفكير الفلسفي المجرد، وكان أرسطو مهتما بكل شيء حوله.

يخبرنا لوك فيري أن أرسطو ومن قبله افلاطون وسقراط وأبيقور وقائمة كبيرة من الفلاسفة الاغريق سعوا إلى التبشير بعقيدة جديدة للحكمة، ومفهومًا آخر للحياة يكتب فيري: " أن نحيا جيدا ونضفي معنى على وجودنا ونحدد قيم تتمثل طيبة بالنسبة الينا نحن البشر «.

يعترف أرسطو بانه تلميذ منشق لاستاذه افلاطون ويخبرنا: " احب افلاطون، ولكنني افضل الحقيقة اكثر "، كان أفلاطون سيكون راضيا لو أنه تفلسف انطلاقا من جلوسه في الاكاديمية وتأمله العالم المحيط به، في الوقت الذي اراد فيه أرسطو استكشاف الواقع الذي يعيشه من خلال التجربة، رفض نظرية معلمه المثالية، معتقدا عوض ذلك أن الطريقة لفهم أي مقولة عامة هي فحص أمثلة معينة لها. " إذا أردت أن تفهم ما تعنيه قطة، فيجب أن ترى قططا حقيقية، و ليس التفكير بطريقة مجردة في شكل القطة ". ويرى ارسطو انه يجب ان تكون للانسان مواهب، وعليه أن ينميها على احسن وجه. يكتب لوك فيري ان مهمة الفلسفة هي " السخط الاخلاقي " الذي يسمح للانسان ان يتدخل في شؤون العالم من اجل سحق ما هو دنيء ". يجب على الفيلسوف ان لا يخضع لغيرة هكذا يحدد أرسطو مهمة الفلسفة باعتبارها " العلم الحر، الذي لا يوجد إلا من اجل ذاته «.

من بين الأسئلة التي فكر فيها أرسطو بشكل دائم هي: "كيف يجب أن نعيش؟" . طرح سقراط وأفلاطون هذا السؤال، وكانت الحاجة للإجابة عن هذا السؤال هي جزء مما يدفع الناس إلى الفلسفة. كان لأرسطو جوابه الخاص: " أبحث عن السعادة "..هذه السعادة التي خصص لها لوك فيري كتابا بعنوان " مفارقات السعادة " أكد من خلاله أن بلوغ السعادة يعتمد فقط على اجتهادنا الذاتى وعلى حالة العالم من حولنا، ومصير الأشخاص الذين نحبهم..يصر ارسطو على أن الانسان فنان نفسه، يبقى خالقا لمشروعه، ويتقدم لأنه يتغير ويتطور، فهو في تقدم مستمر على ذاته. فالفرد الذي يضع ذكاءه في خدمة افعاله، يُسهم في العمل الكوني. يبحث الانسان في الفلسفة عن تنمية قدراته بالتجربة والمعرفة. يكتب برغسون: " تُبرز البهجة ان الحياة كانت ناجحة، وانها انتشرت وانتصرت: كل بهجة لها نبرة انتصارية، في كل لحظة تكون فيها البهجة، يكون فيها الخلق.كلما كان الخلق غنيا تكون البهجة عميقة " – برغسون من كتابه التطور المبدع -. «.

يكشف لنا لوك فيري أن والده أول من أرشده الى أرسطو. يتذكر عندما كان في الثامنة عشر من عمره ظل يعاني من مزاج سيء أدى به الى ان يكتئب، أرشده والده الى وصفة يمكن ان تساعده في تخطي هذه المرحلة، وكانت هذه الوصفة عبارة عن كتب في الفلسفة لافلاطون وأرسطو وسبينوزا وديكارت، قرأ عند ارسطو ان الحياة التي تتفادى مواجهة الذات والتفتيش داخلها لا تستحق ان تعاش، واكتشف من خلال والده مصمم وصانع السيارات الرياضية ان عليه ان يفكر بالعيش لا بالموت، وكانت هذه اول الاسئلة الوجودية التي يوجهها لوك فيري في حياته: مامعنى الحياة؟.. كيف نعيش حياتنا المحددة بعدد من السنوات بطريقة مرضية، وما هي هذه الطريقة، وكيف نجدها؟. ليجد الحل في الفلسفة التي هي حسب رأيه منافسه للاديان في هذا المجال، لأنها تدعونا إلى أن نجد بأنفسنا الإجابة على اسئلة الوجود الانساني، فليست الفلسفة مجرد خطاب ملغز، بل بحثا عن الحكمة.

ولد لوك مارك فيري في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٥١ في ضاحية شمال باريس لأب من مصممي السيارات الرياضية، يعشق قراءة الكتب، ويتذكر الصبي لوك ان الكتب كانت ترافق اباه حتى في مكان عمله، اما الام فقد ارتضت بان تكون ربة منزل مسؤولة عن ثلاثة ابناء، سيصبح اثنان منهم فلاسفة واحد منهم جان مارك فيري الذي يكبر لوك فيري بخمس سنوات، كانت الام تؤمن بان ابناءها سيصبحون يوما ما في مراكز متميزة، يتذكر لوك فيري ان مارسيل بروست كتب في احد رسائله: " لطالما وافقت ماما انني لا اتفق إلا امرا واحدا في الحياة، ولكنه أمر كان كل منا يقدره بشدة، بحيث كان يُذكر كثيرا: بروفيسور ممتاز " عانى في مراهقته من الخجل وكان منطويا لا يحب رفقة زملائه الطلبة، تسحره شخصية الروائي مارسيل بروست الذي كان يمضي كل وقته في القراءة والكتابة، كما أعجبه غرور صاحب البحث عن الزمن المفقود واعتزازه بنفسه، وبسبب عزلته يقرر والده ان يكلف عدد من الاساتذة لتدريس ابنه في المنزل، يدرس الفلسفة وعلم الاجتماع في السوربون، يتخرج من الجامعة بشهادة فلسفية وبنظرة مغايرة للحياة، يبدأ حياته العماية مدرس لمادة الفلسفة في المدارس الثانوية، العام ١٩٨٠ يحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية، ويتم تعينه في معهد الدراسات السياسية في ليون، بعدها ينتقل للعمل استاذا للفلسفة، ينشر اول كتبه بعنوان " الفلسفة السياسية " عام ١٩٨٤ والذي لم يثر الاهتمام، واعتبره البعض مجرد كتاب مدرسي، لكنه سيكتسب شهرة عام ١٩٨٥ بعد صدور كتابه " فكر ٦٨ " الذي وجه من خلاله نقدا الى الفلاسفة الفرنسيين الذين وصفهم بانهم يحملون أفكارا معادية لـ "الإنسانوية" ، حيث تناول بالنقد كتابات ميشيل فوكو وجيل دولوز وجاك دريدا، ثم توالت إصداراته التي لفتت اليه الانتباه وجعلت منه فيلسوفا تطارده وسائل الاعلام وتخصص له الفضائيات برامج يعطي من خلالها دروسا مبسطة عن الفلسفة، مثلما كان الفلاسفة الاغريق ينشرون الفلسفة في الاسواق.

يري لوك فيري ان ارسطو لم يكن فيلسوفا تأمليا، وانما كان يرى العالم بعين الفلسفة، ويدربنا على ان نتفق على ثوابت الحياة كجماعة انسانية وان نعي الوجود جيدا، يكتب ارسطو: " يجب ان نختبر ما قلناه سابقا ثم نختبر صحته بمقارنته بحقائق الحياة، فإذا ما وجدناه يتفق معها فعلينا إذن ان نقبله، وإذا ما تعارض معها فلا مفر من التسليم بانه محض حديث نظري ". ونجد فيري يضع مقارنات في " تعلم الحياة " بين الدين والفلسفة، فالاديان تعد الإنسان بامكانية الوصول إلى إلى الخلاص عن طريق الإيمان، بينما الفلسفة تعد الانسان بانه سيتمكن من إنقاذ نفسه بنفسه عن طريق العقل.

ويثير فيري ضجة في الاوسط الثقافية الفرنسية عندما يؤكد ان فولتير وروسو وديدرو لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق، وان فكرة التنوير لم تاخذ طابعها الفلسفي إلا على يد الفلسفة الالمانية وخصوصا عند ايمانويل كانط.. بل ويذهب ابعد من ذلك عندما يعتبر ديكارت ليس بفيلسوف جيّد. وهو يرى ان الفلسفة الفرنسية حاولت إلغاء الدين من المعادلة التنويرية، عكس فلسفة كانط التي عملت على " علمنة الدين ".

ويجد فيري ان الفلسفة في فرنسا حاولت ان تجرد الانسان من مركزيته في الكون: " في تاريخ الفلسفة كان تاريخا للعباقرة منهم إما من اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو، أو من الألمان مثل كانط، والجيل من بعده: ياسبرز، هوسرل، وهابرماس " – لوك فيري اجمل قصة في تاريخ الفلسفة.

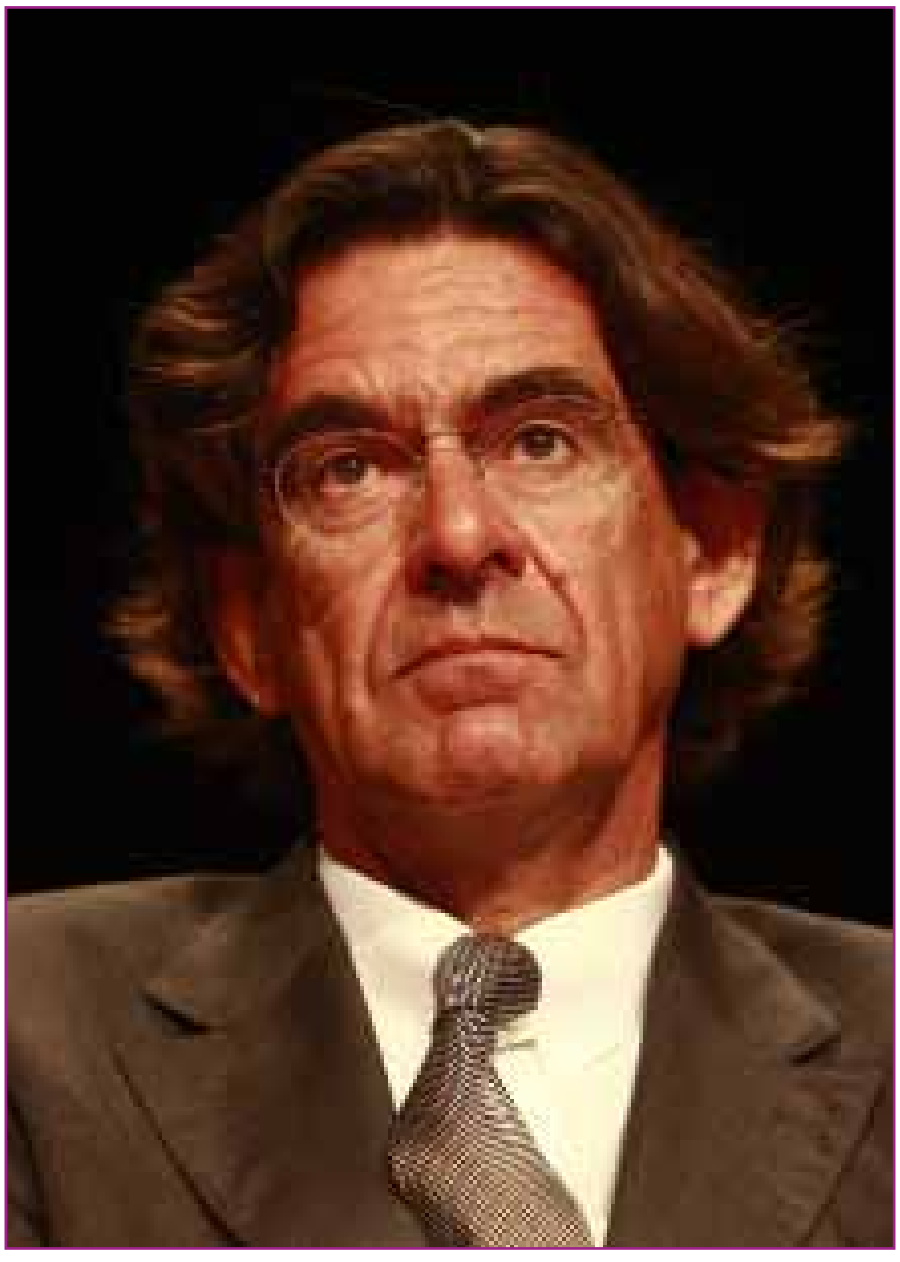

يسعى لوك فيري من خلال مؤلفاته التي قاربت الـ " ٥٠ " كتابا الى تبسيط الفلسفة وتقديمها من خلال لغة بسيطة واضحة من السهل فهمها من طرف جمهور غير متخصص، وقد قدم في هذا المجال عدد من الكتب ابزها "الفلسفة كما شرحتُها لابنتي" ، وكتابه الشهير "تعلم الحياة" وكتاب ممتع بعنوان "أجمل قصة في تاريخ الفلسفة " والذي يستعرض فيه قصة الفلسفة عبر العصور مؤكدا ان : " الفلسفة ليست فن الأسئلة كما يُشاع، وإنّما هي في الأساس فن الأجوبة ". فبرأيه، أن إنسان هذا العصر، في ظل هذه المتغيرات الاجتماعية والتكنولوجية المتسارعة، والتقلّبات السياسية والاقتصادية المتتابعة، يصبح عرضة للشكوك والظنون، فيقع تحت تهديد مخاوف كثيرة، نفسية واجتماعية، تقلقه وتفسد عليه حياته واطمئنانه. ولذلك، يذكرنا فيري بما انتهى إليه الفلاسفة اليونانيون منذ القدم، وهو أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة سعيدة إذا كان الخوف يسكنه، لأنه في تلك الحالة سيكون أسير الحنين والتمني، أي انه يقع اسير حب الماضي وحب المستقبل، وسيتعذر عليه عندئذ التمعن في الحاضر جيدا.

في عام ١٩٩٤ يتم إختياره رئيسا للمجلس الوطني للبرامج في وزارة التعليم، وبعدها باعوام يتولى وزارة التربية، وهو لا يخفي اعتزازه بهذه المناصب، حيث قال في تصريح صحفي: "لا أشعر بالخجل وأنا

أمارس السلطة، فأنا أتعلم هنا أكثر مما أتعلمه طيلة عشر سنوات من تدريس فلسفة القانون».

يكتب لوك فيري ان ارسطو تمكن من تخصيب الفلسفة بالملاحظة اليومية للحياة.

يقال دائما: إذا كان للفلسفة من رئيس لجمهوريتها، فهو بالتاكيد ذلك الرجل صاحب الانف الأفطس، القصير والبدين، والذي لا يشاهد إلا وهو يرتدي الملابس الرثة، وأعني به سقراط، وكانت ميزته انه تمرد على مجتمعه، له شخصية قوية و عقل ذكي. اتفق الجميع في أثينا على أنه لم يشبهه أحد من قبل في الازعاج الذي تسبب به للمجتمع، لكن رغم ذلك كان الكثير من الشباب يتحلقون حوله، وكان هؤلاء يؤمنون بما كان يؤكد عليه من ان الحياة تستحق العيش، اذا كنت فيها تفكر بما ستفعله، وجاء من بعده تلميذ افلاطون الذي قال عنه الفيلسوف الفريد نورث وايتهد: " ان الفلسفة الغربية كلها ليست اكثر من سلسلة هوامش على فلسفة افلاطون، ولعل افلاطون اول مفكر كبير تناول بالشرح اي شيء نفكر فيه، بدءاً من الحب ومرورا بالفضيلة والخيال وليس انتهاء بالعدالة والحقيقة، وقد كان مثل معلمه اراد ان يعلم نفسه كيف تتمكن من انكار ذاتها، وان لا تفرط في الانغماس في اي شيء.. وربما كان المرحوم افلاطون اول من تنبه ان الديمقراطية لا تنفع مع شعوب لا تحترم العقل والفكر، وكان يصر على ان الديمقراطيات تقود احيانا الى ان تغرق الناس في حريات زائفة.. ولهذا ظل يصرخ ان الديمقراطية تحتاج مواطنين اقوياء، ناضجين، لهم شخصياتهم المستقلة.ومثلما كان افلاطون تلميذا لسقراط، عاش أرسطو اكثر من عشرين عاما وهو يستمع الى دروس معلمه افلاطون في الاكاديمية، ومثلما كان افلاطون معلما للحاكم ديون، اصبح ارسطو معلما لابنه الاسكندر، وفي كلتا الحالتين كان افلاطون وأرسطو يودان ان تتجسد تعاليمهما في نظام الحكم، ومثلما اسس افلاطون مدرسته، تمكن أرسطو ان يؤسس المدرسة " المشائية " وكان الطلبة فيها يتفلسفون بينما " يتمشون " بين الاروقة.

كان السؤال الذي يشغل الفلاسفة هو: " كيف يمكننا أن نزيد حظوظنا من السعادة؟ " . وكان سقراط يصر إن السؤال يجلب لنا الحقيقة وهذه الحقيقة هي التي ستدلنا على السعادة، في الوقت الذي كان فيه افلاطون يرى ان السعادة تقوم على نوع معين من التناغم والانسجام بين الرغبات والأهداف، فيما أصر أرسطو أن يخبرنا إن الاحساس بالسعادة سيقودنا إلى السلوك الحسن.

أرسطو الذي كان يطرح على تلامذته سؤالاً هو: "كيف يجب أن نعيش؟ " .كان يؤمن إن الاجابة عن هذا السؤال هي الطريق إلى الفلسفة ولهذا ظل طوال حياته يرفع شعار " إبحث عن السعادة».

ماذا تعني عبارة "إبحث عن السعادة"؟ تعني عند أرسطو اكتمال الفضائل في النفس، وهو يعتقد إن كل فضيلة توجد في الوسط بين طرفي نقيض. توجد الشجاعة مثلما في الوسط بين الجبن و التهور.

يعتقد الكثير من فلاسفة العصر الحديث بأن أرسطو كان محقاً في ما يتعلق بأهمية تطوير الفضائل كما أن رؤيته لما تعنيه السعادة كانت دقيقة وملهمة. وانه اراد ان يعلمنا بأنه عوض السعي إلى رفع نسبة المتعة في الحياة، يجب السعي لأن نكون أحسن، وأن نفعل الشيء الصحيح. هذا ما يجعل الحياة تسير على ما يرام.

يلاحظ ارسطو في كتابه علم الاخلاق ان كل سعي انساني وكل عمل يتطلبان خيرا ما، على انه غاية لهما. فاذا كان هناك عدد كبير من الاعمال المختلفة، فهناك انواع كثيرة من الخيرات. بيد ان هذه الخيرات كلها يخضع بعضها لبعض حتى نصل الى الخير الاعظم. هذا الخير الاعظم في نظر ارسطو هو السعادة: " ان السعادة هي الخير الوحيد الذي يكتفي بذاته، انها الخير المطلق «..

يحاول لوك فيري اقتفاء أثر ذاك ارسطو ليثبت لطلبة الفلسفة ولعشاقها ان بامكانهم أن يذهبوا في رحلة فلسفية يحجون فيها إلى بلد سقراط وافلاطون وأرسطو وديوجين وابيقور للاستجمام العقلي والجسدي. يكتب لوك فيري: " لا نزال بحاجة إلى الفلسفة من أجل تحديد موقعنا في هذا العالم وذلك بغض النظر عن عرضيتها أو أصالتها».

لوك فيري.. فيلسوف الخلاص

د. حسن الحريري

لوك فيري فيلسوف فرنسي ولد سنة ١٩٥٢. شغل منصب وزير التربية والتعليم في فرنسا في عهد رئيس الوزراء جون بيير رافاران ما بين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٤. هو واحد من الفلاسفة الجدد، الذين أحدثوا تحولا عميقا في الأوساط الفلسفية السائدة، برموزها المعروفة أمثال جاك دريدا وجاك لاكان وجيل دولوز وميشال فوكو...، لاعتقادهم أنّ الفلسفة ضلت الطريق بتوغلها في مباحث فكرية ومعرفية عويصة ومعقدة لا يفهمها إلا خاصّة الخاصّة. لقي هذا التيار الجديد نجاحا غير مسبوق لانتهاجه خطابا مبسّطا في تحليل القضايا الراهنة التي تشغل إنسان هذا العصر. ومن رموزه البارزة التي لقيت كتاباتها إقبالا شديدا لدى عامّة القرّاء، إلى جانب لوك فيري، أندري كونت سبونفيل وميشال أونفري... بعد تخرّجه من السوربون ثم من هيدلبرغ بألمانيا في أواسط السبعينات، التحق لوك فيري بالتدريس، فدرّس الفلسفة والعلوم السياسية في جامعات فرنسية كثيرة، وبدأ نشر إنتاجه منذ ١٩٨٥ بكتاب ينتقد الفكر الفلسفي السائد، وعنوانه «مقال في مناهضة الإنسية المعاصرة» ثم أصدر كتابا بعنوان «النظام الإيكولوجي الجديد» وآخر بعنوان «الإنسان الإله أو معنى الحياة».

في كتابه «تعلم الحياة» اعتبر لوك فيري أن فلسفته تقوم على مبدأ الخلاص، أي فلسفة البحث عن الخلاص دون اللجوء إلى أي قوى خارجية. إنها تساعد على قهر المخاوف التي تشل الحياة، فلا أحد في نظره يستطيع أن يحل محلها، إنها تعلم الحياة وتعلم عدم الخوف من مختلف أوجه الموت وتخطي تفاهة اليومي وقد أثبتت الفلسفات القديمة هذه القدرة على الحضور في حياتنا المعاصرة بخلاف تاريخ العلوم الذي يخضع لمنطق الدحض والتجاوز. وبهذا المعنى لن تصبح الفلسفة مجرد تأمل نقدي كما يراها الكثيرون، بل تتحدد من خلال أبعاد ثلاثة أساسية هي: النظرية «كيف نرى العالم ونفسره»، وعلم الأخلاق «ما الذي سنتفق عليه فيما بيننا كجماعة إنسانية»، وقبلهما وبعدهما الخلاص «كيف نجابه كبشر معرفتنا بزوالنا وشبح الموت والفناء الذي نعيه منذ أن نعي الوجود»... ومن خلال تناوله ودراسته لتلك الأبعاد الثلاثة في أكثر من محطة فلسفية، يتتبع القارئ كيف تطوّر الوعي الإنساني ببطء أو بقفزات عنيفة أحيانا، وكيف ظلت أسئلته الوجودية الأكثر عمقا مفتوحة على عدد لا نهائي من الإجابات، منذ الرواقيين الذين رأوا في النظام الكوني «الطبيعي» المعنى والمآل، ونصيحتهم بالعيش في الحاضر دون التأسي على ما مضى أو ما هو آت، ومنهم إلى الخلاص بالروح والجسد لدى المسيحيين وكيف انتصرت المسيحية على الفلسفة وجعلت منها مجرد خادم للإيمان، وكيف صار الإيمان والمحبة في الله هو مناط الخلاص الإنساني ومجابهته للفناء. ومن المسيحية إلى الإنسية الجديدة حين صار الإنسان هو مركز العالم ومناط التحكيم والمنبع والمصب لكل التجربة والحكمة، حين صار العلم والعقل والتجربة والمنطق هم الشاهد والدليل، هنا أصبح الفيلسوف يعتقد أن معرفته وفهمه لذاته وللآخرين يمكنانه من تخطي مخاوفه ببصيرة نافذة وليس بإيمان أعمى. بعبارة أخرى إذا كانت الأديان تصف نفسها بأنها «عقائد الخلاص» بواسطة الآخر وبعون الله، فإن فيري يستطيع وصف الفلسفات الكبرى بأنها «عقائد الخلاص» بواسطة الذات ومن دون عون الله.

إذن مراد الفلسفة في نظره هو أن نخص أنفسنا بقوانا الذاتية وعبر الدروب التي يرسمها العقل ببساطة إذا ما توصلنا لاستخدامه كما يجب بجرأة وحزم، وهذا بالضبط ما حاول قوله مونتاني عندما يؤكد لنا أن «التفلسف هو تعلم الموت»، ملمحا إلى حكمة قدماء الفلاسفة اليونانيين. إن كتاب «تعلم الحياة»، هو واحد من صيغ الفيلسوف الإغريقي القديم «سينيك». فهو يضم فكرة التلقين الفلسفي، من حيث أنه ضروري للتخلص من المخاوف الوجودية. لكن هذا يتضمن أيضا فكرة احتواء العالم في شموليته. وهو ما يعني أن احترام الآخر لا يلغي الاختيار الشخصي. بل إن هذا الاختيار شرط أساسي في اعتناق هذه الشمولية. من هنا يجب أن ندرس عند الفلاسفة الكبار هذه النقطة السامية من فكرهم وهي فكرة الخلاص الشخصي. فإن لم تقدنا هذه الفكرة إلى الحكمة فإنها على الأقل ستقربنا منها. لقد كان موضوع الفلسفة اليونانية العامّ هو القول بأنّ الحياة الطيّبة هي التي تقبل الموت، تلك التي انتصرت على الخوف والقادرة على العيش في الحاضر. والحكيم هو الذي لم يعد يخاف من الموت والقادر على التآلف مع الكينونة. وهو الأمر الذي تمت استعادته من قبل سبينوزا ونيتشه، وإلى مثل هذه النتيجة انتهى الفيلسوف الفرنسي لوك فيري في حواره المنشور بجريدة لومند الفرنسيّة. وهذا الحوار الذي أعقب صدور كتابه الأخير «ثورة الحبّ»:

كان الحبّ موجودا على الدوام بيد أنّ ابتداع زواج الحبّ هو أعظم حادث على المستوى المجتمعي بالنسبة للقرنين الماضيين في أوروبا. ما هو زواج الحبّ؟ هو ذلك الزواج الذي اختاره الأبناء وليس ذاك الذي تفرضه القرية أو الوالدان. هو نتيجة تحرّر الفرد من نفوذ وتسلط القرية والذي كان نتيجة منطقية لأسلوب العمل المأجور. فهذا الابتعاد عن القرية هو الأمر الذي سمح بظهور العلمانية في أوروبّا، إذ هو، أيضا، ابتعاد عن عبء الأديان الاجتماعي. لم تولد العلمانية في فرنسا من تاريخ الأفكار وكان من نتائج الزواج المذكور. إن حبّ الأبناء لم يكن له مثيل في تاريخ الإنسانية كله. في القرون الوسطى كان موت طفل أقلّ أهمّية من موت خنزير أو فرس. أذكر جملة كتبها المفكر مونتاني في رسالة إلى أحد أصدقائه: «صديقي العزيز، لقد فقدت ولدين أو ثلاثة وهم في مرحلة الرضاعة». ولكن لم يدفع هذا الحبّ للأقارب أبدا إلى الفردية أو الانكفاء على الذات بل بالعكس كان من نتائجه الانفتاح على المشترك وعلى السياسي.

ما يحدث اليوم هو شيء مثير للاهتمام: نحن – حسب فيري – نعيش تصفية لكل وجوه المقدّس بالمعنى الاشتقاقي للكلمة. فالمقدّس ليس الديني في مواجهة الدنيوي. إن القيم المقدسة هي التي يمكن أن أضحي من أجلها، تقديم حياتي فداء لها. يوجد في تاريخ أوروبّا ثلاثة ضروب من المقدّس الجماعي: الموت من أجل الله وذاك يعني الحروب الدينية، والموت من أجل الوطن «٣٥ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية»، وأخيرا من أجل الثورة (خلفت الشيوعية نحو ١٢٠ مليون ضحية عبر العالم). أعتقد أنّه قد تمّ تصفية تلك الوجوه الثلاثة تحت تأثير تاريخ الهدم في القرن العشرين، من خلال تاريخ العائلة الحديثة والعمل المأجور. فبانفكاكه عن قريته وضع الفرد مسافة بينه وبين الكاهن حينما يحبّ شخص شخصا ما حقّا، وسواء كان ذلك حبّا عشقيّا أو حبّ أبوة، فإن الإنسان يعيش في هذا الحبّ تجربة تقديس الآخر إذ سيصبح بهذا مقدّسا بالمعنى الذي يمكن فيه أن يقدّم حياته فداء له إن كان مهدّدا. إن الإنسان، هنا، يعيش تجربة متعالية، ولكن لا يشعر بها لا على مستوى الفكر أو الدين، ولا في أي مكان آخر غير داخله هو. وهذا ما تعبّر عنه استعارة القلب في كل مكان، وفي كلّ اللّغات والثقافات، حيث أطلق عليه الفيلسوف هوسرل: «التعالي في المحايث»..

إن حياة ناجحة لكائن هالك أفضل من حياة فاشلة لكائن خالد، هذه هي بداية الفلسفة، وذاك تعالٍ علماني بمعنى من المعاني، لا يمكن أن يتحقق في نظرٍ فيري إلا من خلال سفر متأنٍ في تاريخ الفلسفة من الحكمة القديمة إلى التفكيكية المعاصرة مرورا بميلاد المسيحية، النزعة الإنسية وما بعد الحداثة. في خضم هذا التعلم الذي يوفق بحيوية بين الوضوح والعمق، ويجعل القارئ أكثر تعلما وأكثر حرية، تتحقق الفلسفة التي هي بمعنى من المعاني تعلم للحياة أو لنقل فنا للعيش!

عن الشرق الاوسط

عرف لوك فيري وبدأ يسطع نجمه إثر إصداره بمعية ألان رونو سنة ١٩٨٥ الكتاب الذي أثار ضجة كبرى في فرنسا تحت عنوان "فكر ١٩٦٨" الذي وجه نقدا لاذعا للأيديولوجيا السائدة قبل وبعد أحداث ٦٨ بفرنسا. ثم توالت إصدارات غزيرة لاقت بعضها نجاحا كبيرا في المكتبات كـ"النظام الإيكولوجي الجديد" و"الإنسان-الإله أو معنى الحياة" و"ثورة الحب، من أجل روحانية علمانية" وغيرها.. وآخر ما صدر له "الابتكار المدمر" (٢٠١٤). بالإضافة إلى مجموعة من التسجيلات في شكل أقراص مضغوطة حاول أن يبسط عبرها تاريخ الفلسفة وأهم قضاياها.

الفيلسوف الفرنسي لوك فيري: الفلسفة خلاص علماني

حميد زناز

ـ لا تهتم الفلسفة بشيء غير محاولة إيجاد معنى للحياة، وقد أمضيت قرابة الأربعين عاما وأنا أبحث عن هذا التعريف، تقول، ولهذا السبب، فهو التعريف الأقرب إلى قلبي". هل تفضلت بشرح هذا الاكتشاف؟

× لوك فيري: يلتقي التلاميذ في فرنسا بالفلسفة في نهاية المرحلة الثانوية، في السنة النهائية تحديدا، كما تعلم. وحينما ندقق النظر في الكتب المدرسية والمقررات البيداغوجية المخصصة لهذه المادة نجدها تقدم أساسا عن طريق كلمات مفتاحية ثلاث: التفكير، البرهنة، النقد. والفكرة المركزية التي يدور حولها تعليم هذه المادة هي عرض الفلسفة على أنها ضرب من التفكير أو طريقة في التفكير موجهة لمساعدة الشبان والشابات على الوصول إلى نوع من الاستقلال الفكري وتمكينهم من الوصول إلى التفكير بأنفسهم.

وإن كانت هذه النظرة جديرة بالتقدير وقد تكون حتى مفيدة من زاوية "التربية المدنية"، فإن هذا التصور لا علاقة له إطلاقا بالفلسفة كما كانت في القديم وكما لا زالت في الحاضر. وأنا أعي ما أقول. ولا يختلف اثنان في أن كل فيلسوف بأتم معنى الكلمة يفكر ويبرهن ويستعمل العقل النقدي. ولكن من لا يفعل ذلك؟ كثيرون..

هل تعتقد، عن جد، أن عالم بيولوجيا أو فنانا، أبا أو أما لعائلة، لا يفكرون ولا يقدمون أدنى حجج؟ الكل يفكر ويملك عقلا نقديا ويحاول البرهنة على ما يقدم من أطروحات، حتى رجال السياسة والإعلام. ومع ذلك، وهذا أقل ما يمكن قوله، فهم ليسوا بفلاسفة! وهذا هو السبب الذي جعلني أقترح تعريفا آخر للفلسفة، كتعريفها بأنها "مذهب خلاص" علماني، يدخل في تنافس مع الديانات الكبرى. فكل الفلسفات الكبرى، دون استثناء، هي مذاهب خلاص دون إله.

ـ هل تصبح الفلسفة عقيدة بدورها؟

× لوك فيري: في والواقع وعلى عكس الديانات الكبرى، تعدُ الفلسفة أولئك الذين يريدون تكريس حياتهم لها بأنهم سَيتمكنون من إنقاذ أنفسهم بأنفسهم وعن طريق العقل في حين أن الأديان الكبرى تعد الإنسان بإمكانية الوصول إلى الخلاص ولكن عن طريق الآخر، الله (وليس بنفسه) وعن طريق الإيمان (وليس العقل). وهنا يكمن في رأيي الفرق الحقيقي الوحيد بين الفلسفة والدين.

ـ ولكن السؤال الذي يطرح رأسا هو المتعلق بمعنى ذلك الخلاص.. نتخلص من ماذا؟

× لوك فيري: "الخلاص، تقول المعاجم، هو فعل النجاة من خطر كبير أو مصيبة كبيرة". وجاءت كلمة "خلاص" في اللغة اللاتينية واليونانية من فعل "أنقذ". ولكي نذكر فيلسوفين يونانيين أساسيين إبيكتيت وأبيقور، فمن أيّ خطر أو من أيّ مصيبة أراد المفكران إنقاذ تلامذتهما وأتباعهما وهما المختلفان جذريا؟ أولا من الخوف الذي يهدد وجودنا ويحاصره، وربما نحسن القول إذا قلنا من ذلك الخوف الذي يعكر صفو حياتنا ويمنعنا من الحركة. فالرغبة في الحكمة، ونشدان السكينة، تلك هي الترجمة الأحسن والأقرب لكلمة فيلو-صوفيا. هي القناعة بأننا ما دمنا مطوّقين بالخوف فمن المستحيل أن نصل إلى "الحياة الطيبة" ومن المستحيل بلوغ السكينة ومن هنا فمن المستحيل أن نكون أحرارا في نفوسنا وأن ننفتح على الآخر وأن نتمتع بأريحية ما: حينما نخاف نكون مضطربين، متلعثمين، بمعنى نكون غير أحرار ومتقوقعين على ذواتنا في آن. لكي نصل إلى السكينة، من الضروري التغلب على خوفنا وهواجسنا، وخلافا للديانات التوحيدية الكبرى، تعدنا الفلسفة بأننا نستطيع وبأنفسنا وعن طريق العقل بلوغ تلك السكينة، وليس عن طريق الغير أو الإيمان. مجتمعاتنا الأوروبية هي أول المجتمعات المعروفة التي أصبحت حرة وأكثر أخلاقية في نفس الوقت من كل المجتمعات المعروفة حتى الآن في التاريخ كما في الجغرافيا.

ـ من أين يمكن أن يستمد المرء الطاقات لبلوغ "حياة طيبة" وهو يعيش في قارة عجوز لم تعد تؤمن بنفسها؟ "أنا أورو-مركزي"، هكذا تقول، فهل شرحت لنا أكثر؟

× لوك فيري: كثيرا ما أسمع وعلى الخصوص على لسان رجال الدين والمتدينين عموما أن مجتمعاتنا الأوروبية العلمانية وبما أنها بعيدة بل محرومة كثيرا من البعد الروحي، فهي قد استسلمت إلى وهم "أنا بدون النحن" الغارق في أنانية مفرطة. ولأنها مجتمعات تعيش قطيعة شبه كلية مع المطلق، فستسقط في نسبية يائسة. ولئن كان العالم الإسلامي يعيش فائضا في مجال المقدس، فمن المؤكد أن الغرب يعاني نقصا فادحا في الأمر. فالأول عامر أكثر من اللزوم والثاني فارغ إلى أقصى حد. وتحليل كهذا يجد صدى كبيرا لدى كل الذين، سواء كانوا مؤمنين وغير مؤمنين، من اليسار أو من اليمين، والذين لم تفلح مجتمعاتنا الليبرالية في إرضائهم. وشخصيا لا أتفق مع هذا التحليل فحسب بل أذهب مذهبا مضادا له تماما.

ـ كيف ولماذا؟

× لوك فيري: أولا، نحن لا يمكن أن نطلب من الديمقراطيات العلمانية والتي هي من اختراع الحضارة الأوروبية، الشيء ونقيضه، فلا يمكن أن تكون هذه الديمقراطيات عامرة وخاوية في نفس الوقت، فبطبيعة تكوينها وبنائها هي تشكل إطارا ليس من مهمته إعطاء معنى وفرضه كأيديولوجية رسمية، وإنما هي بناء من أجل تنظيم التعايش السلمي بين الأفراد فقط.

فأن نطالب من مجتمعاتنا أكثر من ذلك فهذا لعمري التناقض بعينه. وقليل من الناس – وعلى الخصوص أولئك الذين استبدلوا الروحانيات التقليدية بديانات الخلاص الأرضي والذين لا يزالون ينتظرون من الدولة يائسين أن تحدد غايات جليلة للجميع – هم قادرون على فهم وهضم الفكرة الأساسية التالية: بما أن بنية الدولة الليبرالية علمانية في جوهرها، بمعنى محايدة، فلكل منا والحال هذه أن يعطي معنى لحياته بطريقة فردية. والفردية لا تعني هنا أن يكون الفرد منعزلا عن الآخرين، "دون الآخرين" وإنما "دون الدولة".

إذ يمكن بناء علاقات لا متناهية مع الآخرين، عاطفية وثقافية وعائلية وجمعوية أو سياسية، سُمح بها في مجتمع مدني مسالم وضعت فيه العلمانية حدا للحروب الدينية وباتت تحترم فيه حقوق الإنسان ويحترم فيه الغير. وعلى أيّ حال، فالدولة الليبرالية لا تهمل أبدا أو تتجاهل الجانب الجماعي، وإنما فقط يعود للإفراد أنفسهم نسج علاقات خصبة، وإعطاء معنى لوجودهم وبناء ذواتهم بذواتهم، وهو أمر أصعب بكثير من ترك الأمر لأيديولوجية دينية رسمية. يجوز للدولة أن تحدد المبادئ العامة للقانون وضمان السلام الاجتماعي ولكن لا يمكن أن تذهب إلى أبعد من ذلك، فما بعد ذلك لا يخص سوى الإفراد وحدهم.

ـ لنعد إلى مسألة المقدس في أوروبا إذا سمحت، أنت تعتقد بأنه لم يختف، كيف؟

× لوك فيري: من يزعم بأن المقدس قد اختفى من المجتمعات الأوروبية الحديثة يرتكب خطأ مزدوجا: فأولا تبقى الديانات في هذه المجتمعات حاضرة بالمقدار الذي يحبذه الأفراد، وثانيا توجد رموز غير دينية فيما يخص العلاقة بالمطلق إذ المطلق ليس هو المقابل للدنيوي فقط بل هو أيضا ما يمكن أن نضحي بحياتنا من أجله، ولا نحتاج أن نكون مؤمنين لنقدس أوطاننا أو ببساطة الأشخاص الذين نحب مثلا. وبعيدا عن السقوط في خواء روحي بسبب عدم وجود ما فيه الكفاية من الدين، فعلى العكس تماما، فمجتمعاتنا الأوروبية هي أول المجتمعات المعروفة التي أصبحت حرة وأكثر أخلاقية في نفس الوقت من كل المجتمعات المعروفة حتى الآن في التاريخ كما في الجغرافيا. يريد البعض أن يوهمنا بأن أوروبا هي الاستعمار وتجارة الرقيق والإبادات الجماعية فقط!

ـ ولكن تلك حقائق لا ينبغي نكرانها..

× لوك فيري: الحقيقة أن قارتنا هي بالأحرى من ألغى العبودية ولم يكن ذلك الإلغاء مفروضا بالقوة وإنما جاء نتيجة الأنوار الأوروبية. ويقال أيضا إن شعوب الجنوب لم يعد يغريها النموذج الغربي الذي هو في سقوط حر! وألاحظ العكس تماما وخير شاهد على ذلك الآلاف من المهاجرين الذين يقصدون قارتنا اليوم مضحّين بحياتهم أحيانا. وعلاوة على ذلك، لقد مال كل شيء في العالم لصالح القيم الديمقراطية في السنوات الخمسين الماضية، في الشرق كما في أميركا اللاتينية بل حتى في الصين التي تسير بخطى سريعة نحو التغريب. ويبقى العالم الإسلامي الاستثناء الوحيد.

ـ وبالنسبة إلى أوروبا لا انحطاط ولا شيء من هذا القبيل في رأيك؟

× لوك فيري: إذا كان هناك انحدار ما في أوروبا اليوم فهو على المستويين الاقتصادي والاجتماعي فقط. ولكن لا يعود ذلك أبدا إلى انعدام المبادئ الأخلاقية وإنما على العكس من ذلك، إذ قيمنا الإنسانية، الأخوة والتضامن والحماية الاجتماعية.. هي التي خلقت دول العناية والرفاه وهذا لعب دورا سلبيا ضدنا في إطار المنافسة المعولمة إلى درجة أصبح وضعنا صعبا أمام عدد الوافدين الجدد. ولهذا ينبغي أن نحافظ على نموذجنا الاجتماعي أكثر من أي وقت مضى.

ـ في كتابك "الإنسان المؤله أو معنى الحياة"، تتابع تطور الأفكار التي انبثقت عن علمنة المجتمع الأوروبي، ونفهم انطلاقا من تحليلك أن القيم الأخلاقية تحل محل الدين أكثر

فأكثر، وأن دليل الإنسان غدا مع مرور الوقت أخلاقية مؤسسة في جزء كبير منها على مبادئ حقوق الإنسان.. فهل هذه السيرورة قابلة للتعميم على العالم كله؟ وهل يمكن أن تحدثنا عن خصوصية الحضارة الأوروبية وتأليهها للكائن البشري؟

× لوك فيري: مثل الفيلسوف هيجل الذي وصف الوعي الشقي وصفا جيدا، لا يريد عدد كبير من المثقفين والنقاد في أوروبا الليبرالية والديمقراطية إدراك سوى ما ينهار ويموت في التاريخ، وتقريبا لا يرون أبدا ما ينبثق ويبدأ في الحياة. ومن هنا تلك النزعة التشاؤمية التي كانت قوية إلى درجة أطلقت العنان للفكر السلبي. ومن هنا أصبح التفاؤل يبدو سذاجة والتشاؤم ذكاء. وفي حقيقة الأمر أصبح هذا التشاؤم مرض العصر. ولم تعد تحصى الكتب التي تعلن انحطاط أوروبا، انهزام الغرب وسقوطه، اضمحلال المجتمع المدني، فشل الليبرالية المؤكد وغير ذلك من التكهنات التي نقرأ على طول صفحات تلك الكتب التي لا ترى مصير القارة العجوز سوى مأساويا. أحسن إجابة ربما على هذا الزعم مقولة جورج برنانوس الشهيرة "إذا كان المتفائل غبيا سعيدا، فليس المتشائم سوى غبي شقي".

ـ كلمة جميلة وعميقة ولكن ماذا تقصد من ورائها هنا؟

× لوك فيري: يجب أن نعترف ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين أن الأنماط التقليدية للتضحية الجماعية، العنيفة وواسعة النطاق قد تم تجاوزها تماما. فمن يرغب اليوم، على الأقل في أوروبا، أن يموت في سبيل الله، أو من أجل الوطن أو الثورة؟ لا أحد أو تقريبا لا أحد. وعلى عكس الكآبة السائدة، أعتقد بأن أهم خبر سار ليس بالنسبة إلى القرن العشرين فقط وإنما بالنسبة لألفية كاملة هو انتهاء الحروب الوطنية. كيف يمكن أن لا أعتز وأبتهج بهذا السلم، أنا الفرنسي الذي درس الفلسفة بألمانيا التي كان أبي في حرب معها في الميدان؟ أما في ما يخص هراءات الماوية القاتلة التي خلفت عشرات الملايين من الضحايا في ظروف فظيعة، فاستثناء بعض المثقفين الطاعنين في السن المسكونين بحب الظهور، فلا مثقف لا يسره تصفية هذه الماوية وذهابها إلى غير رجعة.

ـ وفي ما يخص الحروب اليوم؟

× لوك فيري: هي مقرفة تلك الحروب الدينية التي تلطخ العالم بالدماء اليوم! ولكن هل هذا يعني ويكفي للقول بأننا نعيش في عصر الخواء، إزاحة السحر عن العالم، والهروب المدني؟ لا أرى ذلك إطلاقا. بل ذلك هو وهم الوعي الشقي النموذجي الذي لا يحبّ أن يحبّ. ما نعيشه ليس إجهازا بأيّ حال من الأحوال على المقدس أو كسوفا للقيم وإنما هو تجسيد جديد لها في وجه جديد، وجه الإنسانية. اطرح على نفسك بكل أمانة السؤال التالي: من أجل من أو ماذا أنت مستعد للتضحية بحياتك؟ بكلمات أخرى، ما هو الشيء الذي تعتبره كمقدس، كجدير بالتضحية؟

ـ سأعيد توجيه السؤال ذاته إليك..

× لوك فيري: سيكون الجواب بالنسبة إلى أغلبيتنا الساحقة في أوروبا: الإنسان هو المقدس القريب والبعيد وليس التجريدات الفارغة للدين والسياسة التقليديتين. وبفضل هذه الليبرالية المفترى عليها كثيرا، نحن نعيش ولادة وجه إنساني جديد مغاير لإنسية فولتير وكانط وحقوق الإنسان والعقل وتلك الأنوار التي كانت حقا حاملة لمشروع تحرر واسع بيد أنه قاد أيضا إلى الامبريالية وإلى الاستعمار. ما نعيشه هو على النقيض من ذلك: إنسية ما بعد كولونيالية وما بعد ميتافيزيقا، إنسية تعال وحبّ وغيرية. ينبغي علينا ابتداع مقولات فلسفية جديدة من أجل التفكير في إشكاليات هذه الإنسية الجديدة والآمال المعلقة عليها. وأقل ما نقول هو إنّ هذا الرهان يستحق كل اهتمامنا.

ـ هل لديك فكرة عن الفلسفة العربية اليوم وهل تعتقد أن هناك فلسفة غير غربية؟

× لوك فيري: يبدو من تعريف الفلسفة الذي اقترحت منذ قليل أنها لا بد أن تكون علمانية أو لا تكون. وبطبيعة الحال يوجد علماء لاهوت ومفكرون كبار في مجال الدين كالقديس توما الإكويني وباسكال لدى المسيحيين وابن سينا وابن رشد في العالم العربي الإسلامي. فكتاب "فصل المقال" لابن رشد هو عمل رائع حقيقة ومؤلفه شارح عظيم لأرسطو وكان له تأثير كبير جدا على العالم المسيحي وآدابه. ولكن مهما كان الفكر عميقا، فإن ذلك لا يجعل منه فلسفة إذ لا يمكن التفلسف دون التحرر نهائيا من قبضة الدين.

ـ يقدم أندري كومت سبونفيل نفسه على أنه فيلسوف مادي مأساوي بينما يرى ميشال أونفري نفسه فيلسوفا متعويا.. فكيف يصنف السيد لوك فيري نفسه؟

× لوك فيري: كإنسي (هومانيست)، بطبيعة الحال، بالمعنى الثاني للكلمة الذي حدثتك عنه سابقا، إنسية الحب التي أحاول تشييدها منذ مدة من كتاب إلى آخر.

عن مجلة "الجديد"

تاريخ الفلسفة منذ اليونان حتى يومنا هذا

الفيلسوف الفرنسي لوك فيري يقدم مسحاً تاريخياً شاملاً

هاشم صالح

غني عن القول أني لا أستطيع استعراض جميع الكتب التي قرأتها أخيراً، ولكني سأتوقف عند أحدها، وهو للفيلسوف الفرنسي لوك فيري، ومعلوم أنه كان قد نشر سابقاً كتاباً بعنوان «أجمل قصة لتاريخ الفلسفة». ولكنه أصدر بعده كتاباً أكثر ضخامة، بعنوان «فلسفات الأمس واليوم»؛ العنوان الحرفي للكتاب هو «حكمات الأمس واليوم»، جمع حكمة. ومن مصادفات الأمور السعيدة أن العرب كانت تترجم كلمة «فلسفة» اليونانية بكلمة «حكمة». وربما كان الأفضل أن نترجم عنوان الكتاب بـ«فلاسفة الأمس واليوم»، وذلك لأنه يستعرض تاريخ الفلسفة منذ اليونان حتى يومنا هذا، ولكنه يضيف إليهم غلغامش وبوذا وحكمة الشرق أو حكمائه. وينبغي أن نعترف فوراً بأن لوك فيري هو أفضل شارح لتاريخ الفلسفة في فرنسا، وربما في العالم كله. ما عدا ذلك، فإن هذا الكتاب يتحدث لنا عن تاريخ الفلسفة من هوميروس إلى أفلاطون، في فصل افتتاحي تدشيني، ثم ينتقل مباشرة لكي يتحدث عن أرسطو (تلميذ أفلاطون)، في فصل مطول يحاذي الأربعين صفحة تقريباً، يليه فصل عن الرواقيين، ثم عن الأبيقوريين، ثم عن غلغامش وبوذا وحكمة الشرق، كما ذكرنا.

وبعدئذ، يكرس المؤلف فصلاً كاملاً ليسوع المسيح والثورة الدينية الرائعة التي دشنها ودفع حياته ثمناً لها. ولكن ينبغي الاعتراف بأن الدوغمائية الدينية الانغلاقية انقلبت لاحقاً على الفلسفة اليونانية، بل وكفرتها باعتبار أنها وثنية، ثم جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر لكي ينقلب بدوره على الدوغمائية الدينية اللاهوتية، وينتقم للفلسفة. وهكذا، انتقلنا من نقيض إلى نقيض في تاريخ الفكر الأوروبي. فالعدو أصبح العصور الوسطى المسيحية، وليس الفلسفة والآداب اليونانية – الرومانية التي أشعلت النهضة الأوروبية. ومعلوم أن العرب لعبوا دوراً كبيراً في انطلاقة نهضة أوروبا، عن طريق نقل الفلسفة اليونانية إليها من خلال الفارابي وابن سينا، ثم الشارح الأكبر ابن رشد.

ونلاحظ أن لوك فيري يركز على شخصية واحدة من شخصيات النهضة الإيطالية، ألا وهو: بيك الميراندولي، الذي كان معجباً جداً بالعرب وحضارتهم وثقافتهم. وسوف أتوقف عنده لحظة بعد قليل. وماذا حصل بعد عصر النهضة في القرن السادس عشر؟ شيئان عظيمان: الثورة العلمية التي قضت على علم أرسطو وبطليموس، بفضل كوبرنيكوس وغاليليو، والثورة الفلسفية التي تحققت على يد ديكارت.

وبعد أن يفرغ المؤلف من الحديث عن الثورة الديكارتية، نجده يكرس فصلاً مطولاً لأهم تلميذين خرجا من معطف ديكارت وتفوقا عليه في بعض المجالات، وهما لايبنتز وسبينوزا. ثم يخصص صاحبنا فصلاً كاملاً للفلسفة الأنغلو – ساكسونية، وهذا أضعف الإيمان. وبعدئذ، ينتقل مباشرة إلى التحدث عن كانط والأنوار. ومعلوم أن فيري مختص بكانط، وهو يقرأه في النص الأصلي، أي الألماني. بل ونعته البعض بأنه كانط جديد، عندما اندلعت المعركة ضد فوكو ونيتشه في الساحة الباريسية نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. ثم يخصص المؤلف فصلاً كاملاً لجان جاك روسو وتوكفيل، اللذين دشنا الفكرة الديمقراطية في الغرب. وبعدئذ، يخصص فصلاً طويلاً لهيغل والفلسفة المثالية الألمانية، ثم ينتقل إلى شوبنهاور العدو اللدود لهيغل. ومعلوم أنه كان يغار منه، ويشتمه بعبارات نابية. وبالتالي، فالفلاسفة الكبار قد يفقدون أعصابهم أحياناً بسبب الغيرة والحسد من بعضهم بعضاً، وكنا نتوقع منهم غير ذلك، ولكن انظر إلى حقد المثقفين العرب على بعضهم بعضاً أيضاً! ثم ينتقل المؤلف إلى تلميذ شوبنهاور الذي تفوق على أستاذه: عنيت نيتشه. وبعد نيتشه، يجيء دور ماركس وفرويد وكارل بوبر وهيدغر، وسارتر والفلسفة الوجودية، ثم فكر «مايو ٦٨»، المتمثل بالأقطاب الكبار فوكو وديلوز ودريدا، إلخ. وهم الذين حاول لوك فيري تفكيكهم أو تحطيمهم في كتاب مشهور صدر بالاسم نفسه عام ١٩٨٥. ثم يختتم المؤلف كتابه بفصل مطول عن وضع الفلسفة اليوم. هكذا، تلاحظون أني عددت مفاصل الكتاب بدقة لكي يتسنى للقارئ أخذ فكرة عن المشروع العام ككل. والآن، دعونا ندخل في التفاصيل.

يرى المؤلف منذ البداية أن هدف الفلسفة هو: تحديد نوعية الحياة الجيدة التي ينبغي أن يعيشها الإنسان؛ إنها تبغي التوصل إلى الحكمة التي تقودنا في الحياة، وذلك اعتماداً على العقل فقط. والفلسفات المتتالية ما هي في نظر لوك فيري إلا روحانيات علمانية منافسة للدين، أو مستغنية عنه، وذلك على عكس الروحانيات الدينية التي لم يعد لها لزوم في عصر الحداثة، بحسب رأيه. وهنا، نجد أنفسنا مختلفين مع السيد فيري، فنحن لا نعتقد أن بتر الإيمان أو الدين شيء مستحب. نعم لبتر التعصب الديني التكفيري، ولكن لا لبتر الدين في المطلق، فنحن لا نعتقد أن هناك تعارضاً بين الفلسفة والدين، أو العقل والإيمان، بشرط أن نفهم الدين بشكل عقلاني متنور. وأكبر مثال على ذلك الفيلسوف بول ريكور، فقد كان فيلسوفاً ضخماً، باعتراف لوك فيري نفسه، وفي الوقت ذاته كان مؤمناً كبيراً. على أي حال، فالسيد فيري حر في تصوراته، مثلما نحن أحرار في تصوراتنا.

لكن لنواصل رحلتنا مع هذا الكتاب الضخم الذي يتجاوز الثمانمائة صفحة من القطع الكبير.. يرى المؤلف أن الانتقال من مرحلة هوميروس إلى مرحلة أفلاطون يعني الانتقال من عصر الأسطورة إلى عصر الفلسفة، أو من عصر الملاحم الشعرية إلى عصر النثر والعقل. بهذا المعنى، فإن أفلاطون هو أول فيلسوف في تاريخ البشرية، وربما أكبر فيلسوف، كما قال لي يوماً ما كاستورياديس، أستاذ لوك فيري نفسه وكل جيله، وذلك عندما قابلته يوماً ما في منزله الباريسي لصالح مجلة «الكرمل»، التي كان يرأس تحريرها شاعرنا الكبير محمود درويش.

وماذا عن أرسطو الذي هيمن على البشرية العربية الإسلامية والأوروبية المسيحية طيلة العصور الوسطى؟ إنه القطب المضاد لأستاذه أفلاطون. فبقدر ما كان هذا الأخير مثالياً سارحاً في عالم المثل السماوية، كان أرسطو واقعياً يركز اهتمامه بالدرجة الأولى على دراسة الواقع الأرضي المحسوس. والصراع بين أفلاطون وأرسطو اخترق تاريخ الفلسفة من أوله إلى آخره، إنه الصراع بين المثالية والواقعية. نقول ذلك باختصار شديد وتسرع أشد. والآن، لنقفز على فصول كثيرة، ولننتقل مباشرة إلى عصر النهضة في القرن السادس عشر. وهنا، نصل إلى بيك الميراندولي، الذي يُعتقد أنه مات مسموماً في عز الشباب: ٣١ سنة فقط! لقد اغتاله الإخوان المسيحيون، فقد اتهموه بالزندقة والكفر والخروج على الدين. وكان الميراندولي يقول إن علينا أن نقلد علماء العرب وفلاسفتهم، إذا ما أردنا أن ننهض ونتطور. وكان في رأي لوك فيري أول من بلور النزعة الإنسانية الحديثة في الغرب، عندما ألف كتابه عن «الكرامة الإنسانية أو العظمة الإنسانية»، ولذلك اصطدم باللاهوت المسيحي ورجال الدين، وقد اشتهر بثقته الكبيرة في الإنسان، وقدرته على صنع المعجزات، وقال إنه أخذ هذه الفكرة عن كتب العرب التي تقول إنه «لا يوجد على وجه الأرض أروع من الإنسان»، ولكن المتشددين فهموا كلامه على أساس أنه تطاول على الذات الإلهية. هذا في حين أنه كان مؤمناً بالله، ولا غبار عليه، ولكن الإنسان في نظرهم لا يستحق كل هذا الاهتمام والتمجيد، فهو مجرد عابر فان، يجدر به أن يفكر بآخرته لا بدنياه. وهنا، نلتقي بإحدى سمات العصور الوسطى التي كانت تحتقر الحياة الدنيا، وتزهد بالإنسان وإمكانياته وملكاته وقدراته.

ننتقل الآن بسرعة شديدة إلى ديكارت، الذي يقول عنه المؤلف: لقد خُلد اسم ديكارت لاحقاً عن طريق كتابين فقط، هما: مقال في المنهج (١٦٣٧)، والتأملات الميتافيزيقية (١٦٤١). وهذان الكتابان صغيران من حيث الحجم، ولكنهما ضخمان من حيث التأثير الذي مارساه على تاريخ الفلسفة، والدليل على ذلك أن العمالقة اللاحقين، من هيغل إلى هيدغر، أشادوا بديكارت كل الإشادة، واعتبروه بطل الفكر والمؤسس الحقيقي للفلسفة الحديثة، بمعنى أنه أغلق العصور الوسطى والفلسفة الأرسطوطاليسية. ولا نستطيع الدخول في تفاصيل الفلسفة الديكارتية لأننا قد نغطس بكل بساطة. ولن نتوقف عند تلميذيه الكبيرين، لايبنتز وسبينوزا، ولا حتى عند الفلسفة الأنغلو – ساكسونية، وإنما سننط نطة كبيرة واحدة لكي نصل إلى كانط والأنوار، فماذا يقول لوك فيري عن الموضوع؟ يقول بالحرف الواحد: «سوف نتحدث اليوم عن إيمانويل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤)، إنه أكبر فلاسفة التنوير وأعظمهم شأناً، وربما كان أكبر فيلسوف في تاريخ البشرية. إن مؤلفاته تشبه جبال الهملايا: من الصعب جداً تسلقها، ومن المستحيل مضاهاتها». ولكي لا نغطس هنا أيضاً، بل ونغرق كلياً، دعونا ننتقل فوراً إلى الفصل التالي، عن جان جاك روسو، أستاذ كانط ذاته ومثله الأعلى، قدوةً وأخلاقاً وسلوكاً.

أين تكمن عظمة روسو؟ في نزعته الإنسانية العميقة التي لا تضاهى. يضاف إلى ذلك أن روسو غامر بحياته من أجل الحقيقة؛ لقد شطب على حياته الشخصية بكل بساطة. ما السؤال الرئيسي الذي طرحه جان جاك روسو على عصره؟ إنه التالي: هل التقدم العلمي والتكنولوجي للبشرية يترافق بالضرورة مع التقدم الأخلاقي والإنساني؟ سؤال هائل وعظيم انفجر في عصره كالزلزال أو البركان، فراحوا يشتمونه ويتهكمون عليه، بل ويطلقون الشائعات حول مدى صحته النفسية وإمكانياته العقلية.

عن الشرق الاوسط

لوك فيري: نحن نعيش ثورة صناعيّة ثالثة

ترجمة: حياة لغليمي

في مقالته الأخيرة، «الثورة ما بعد الإنسانيّة» (منشورات بلون)، يرى «لوك فيري» أن الآفاق التي تفتحتها أمامنا الابتكارات التكنولوجيّة والعلميّة مبهجة ومقلقة على حد السواء. فيما يلي حوار أجريناه مع هذا الفيلسوف، في وقتٍ أصبح فيه الذكاء الاصطناعيّ يُثير العديد من الأسئلة حول مستقبل الإنسان والكوكب.

هل يجب أن نشعر بالخوف من الابتكار العلمي التقني ومن الذكاء الاصطناعي؟

– لوك فيري: إن النزوع نحو ما بعد الإنسانيّة هو ما يطرح مشكلة على نحو خاص. فهذا تيار فكري فلسفي وعلمي يأتينا من الولايات المتحدة. وأوروبا لم تتعرَّف عليه بعد بشكل جيّد. فبفضل التمويلات الضخمة اليي تمنحها العديد من الجهات من ضمنها شركة «جوجل»، والتي تعدُّ بملايير الدولارات، اتخذ هذا التيار أهمِّيّة كبرى على الضفة الأخرى من المُحيط الأطلسي، وحرّرت حوله آلاف الإصدارات وأقيمت له العديد من الحلقات الدراسية، كما دارت بشأنه مناقشات ساخنة بين كبار المُفكرين أمثال فرانسيس فوكوياما، ميكاييل ساندل أو يورغن ها برماس. وهو يهدف أولاً إلى الانتقال من الطب العلاجي التقليدي –الذي ظلّ لآلاف السنين يرمي إلى غرض واضح وهو العلاج أي «إصلاح» الأجسام المصابة أو المريضة– إلى نموذج «زيادة» أو تحسين الإمكانات الوراثية للجنس البشريّ. ومن هنا جاء الطموح إلى مكافحة الشيخوخة والزيادة في أمد الحياة لدى الإنسان، ليس فقط من خلال محاولة القضاء على الوفيات المُبكّرة، كما دأب على ذلك الأطباء منذ القرن الثامن عشر، ولكن باستخدام التطبيب التكنولوجي والهندسة الوراثية والتهجين البشري/الآلي، لجعل البشر يعيشون لفترة أطول بكثير. والهدف النهائي من ذلك هو التوفيق بين الشباب والشيخوخة.

هل هي إذن محاولة للحصول في آن واحد على قوة الشباب والحكمة التي لا تتأتّى إلّا مع التقدُّم في العمر؟

– ل. ف.: هذه النقطة تعجبني كثيراً. فإذا افترضنا أننا سنتمكن يوماً ما من أن نعيش وقتاً أطول بكثير، إذن سيكون بمقدورنا أن نشهد ميلاد إنسانية ستكون شابة ومسنة في الآن نفسه، غنية بالعديد من التجارب التي يتيحها العيش المديد، ولكنها تتمتّع بكامل الصحة الجسديّة والفكريّة. في الوقت الحالي، لا يوجد دليل فعلي على أن هذا سيكون ممكناً بالنسبة للبشر، على الرغم من أن بعض الباحثين في جامعة «روتشستر Rochester» قد نجحوا في إطالة عمر بعض الفئران المُعدَّلة وراثياً بنسبة ٥٠ ٪. ومع ذلك، فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بما ستكون عليه التقانة الطبية والتكنولوجيا المتناهية الصغر والذكاء الاصطناعيّ والجراحة الحيوية في القرن المقبل؟ يجب علينا أن نستبق منذ الآن المشاكل الأخلاقيّة والسياسيّة والميتافيزيقيّة التي ستثيرها هذه المقاربة الجديدة لممارسة الطب. وأضيف أن هناك جانباً آخر من المشروع الما بعد إنساني يبدو مثيراً للاهتمام بالنسبة لي: فبعد الصراع ضد عدم المُساواة الاجتماعيّة المُرتبطة بقيام دولة الرفاه الاجتماعيّ، يعتزم أنصار التيار الما بعد إنسانيّ أن يصارعوا ضد اللاتكافؤات الطبيعيّة. فاليانصيب الجيني لا يرى ولا يحس، وهو غير أخلاقيّ وغير عادل، وإذا كانت الإرادة الحرّة للإنسان قادرة على تصحيح ذلك فسيكون ذلك نعمة عظيمة.

هل يمكن أن يكون فيه تهديد للبشريّة؟

– ل. ف.: في رأيي، يكمن الخطر في المُنافسة بين الأمم والجيوش، ثمَّ بين الأسر، وهي منافسة قد تقودنا عن غير قصد إلى تغيير الجنس البشريّ. دعونا نأخذ مثالاً على ذلك: اخترعت شركة ألمانيّة رقاقة يمكن زرعها خلف شبكية العين لإعادة البصر للأشخاص الذين أصبحوا عميان بسبب المرض، ومع أن هؤلاء الأشخاص لم يستردوا قدرتهم الكاملة على الرؤية إلّا أن حياتهم قد تحسنت بشكل كبير. تخيل أن هذه الشريحة تطوَّرت في المُستقبل حتّى أصبحت حدة النظر لدينا تضاهي الصقور، فإن الجيوش سوف تسابق بعضها في صنع كتائب من الجنود «المعززين». وإذا قامت إحدى الأسر بتزويد طفلها بمثل هذه الأداة، فهناك احتمالٌ كبير أن الأسرة المُجاورة سترغب هي الأخرى في فعل الشيء نفسه. ولذلك يجب أن تكون الكلمة الفصل هي «التنظيم عبر القانون»، أن يُحَدّد بالضبط ما الذي سيسمح به وما الذي سيتمُّ حظره؟

على أيّة أسس يجب أن نختار بين هذه الإمكانات المُقدَّمة للبشريّة؟

– ل. ف.: بدايةً يجب أن نعرف بأنه لا مناص لنا من القيام بذلك، ولكن الأمر سيكون من الصعوبة بمكان لأسباب أجملها في ثلاثة: التكنولوجيّات الجديدة عالية التعقيد وفائقة السرعة، وهي تقنيات مُعولمة، ممّا يجعل التشريعات الوطنيّة بالية وغير فعّالة أمامها. لذلك فالثورة التكنولوجيّة ستؤدي إلى ارتفاع مهول في حجم السياحة الطبيّة. وأي تنظيم قانوني لا يشمل مداه التراب الأوروبي بالكامل، بل التراب العالميّ سيكون دون أيّة جدوى. وقد بدأت كلّ من المُفوضية الأوروبيّة ومجلس النواب الأوروبيّ في معالجة هذه المشكلة، من خلال تقريرين مهمَّين عمّا بعد الإنسانيّة، ولكن ذلك إن لم يتم عبر التعاون مع الدول كل واحدة على حدة فإنّ شيئاً لن يتحقّق. وعلى مستوى فرنسا، ينبغي أن يشكّل التفكير في مسألة الابتكار واحدة من أهمّ القضايا السياسيّة. وكما لا يخفى عليكم، ففي الوقت الحالي، شركات الجافا (جوجل وآبل وأمازون وفيسبوك) كلها شركات أميركيّة. أمّا الأوروبيّون فلم يكتشفوا المشاكل التي تفرضها الثورة الصناعيّة الثالثة إلّا متأخرين جدّاً. ولهذا ألّفت هذا الكتاب: لأدق على مسامعهم ناقوس الخطر.

هل أنت إذن مثل بيير رابحي تدعو إلى شكل من أشكال «القناعة السعيدة»؟

– ل. ف.: النجدة، ساعدوني! لا مطلقاً. أنا مثل فولتير، أحب العالم الحديث أكثر من أي شيء آخر، وأحب الديموقراطيّة وجوانبها الحميدة. بيير رابحي هو بالتأكيد يتحلّى بقدر كبير من المسؤوليّة، ولكن تطبيق مبادئه سيكون بالنسبة لي مثل جلب الجحيم إلى هذه الأرض. وعلاوة على ذلك، أعتقد أن كلّ هذه الكراهية للحداثة هي إلى حدّ كبير مسألة موقف، وأنه لا أحد، وخاصة النساء، يريد حقّاً أن يعود إلى العصور الوسطى، إلى تلك الظلامية الحمقاء التي يدعو إليها أنصار البيئة، وخاصة الأصوليّون منهم. فعندما تتعرَّض لحادث أو يلم بك مرضٌ خطير، فإنك تشعر بالارتياح لأنك تملك حظوة العيش في بلد متقدِّم تتوفّر داخله التكنولوجيا العالية والوسائل التي بإمكانها أن تنقذ حياتك. وعلى النقيض من هذه الكآبة المنتشرة بين العديد من الناس، فإنني أزعم أن حضارتنا الأوروبيّة الحديثة أكثر جمالاً من أي وقت مضى. فاليوم، تبدو أوروبا الحديثة والعلميّة والعلمانيّة والتي تنعم بالرخاء ثمينة وضرورية. وما سيدمِّرها ليس هو الليبرالية، بل بالعكس، ما سيودي بها هو الافتقار إلى المزيد من الليبراليّة. ولأننا عالقون في بركة وحل اسمها مناهضة الحداثة فإننا معرَّضون لأن نفقد كلّ شيء في الوقت الذي يحسدنا فيه العالم أجمع على نموذج الحرّيّة الذي لدينا باستثناء بعض المتعصبين.

هل نموذجنا هو النموذج الأصح؟

– ل. ف.: إن به قدراً من الغباء والابتذال. هل يقضي على القيم التقليديّة؟ هل يخلق عدم المساواة؟ نعم، بالطبع، لكنه يترك لنا مع ذلك مساحات كبيرة لتوجيه النقد وللمقاومة، للعودة إلى الوراء وتصحيح أخطائنا، كما أنه يمنحنا الفرصة لنجد بأنفسنا معنى لحياتنا. فهل يكون هذا الحظ العظيم الذي نحظى به والذي هو فريد من نوعه على مستوى التاريخ وعلى مستوى الجغرافيا أيضاً، مخيفاً للدرجة التي تضطرنا إلى التنكر لما نحن عليه؟ الحقيقة هي أن ميلنا الطبيعيّ يتجه نحو التشاؤم تماماً مثل الوعي الشقي الذي يحب ألّا يحب شيئاً. على النقيض من التفاؤل، فإنه يعطي أجنحة وأسلوباً للتفكير السلبي. حيث أصبح هذا السلوك هو مرض هذا العصر الذي تكاثرت فيه أعداد المقالات التي تعلن مطولاً عن هزيمة الفكر، وتراجع الغرب، وانحسار المدنية، وانتحار القارة العجوز، والفظاعة الليبراليّة، وحماقات أخرى أسوأ من ذلك بكثير.

عن مجلة الدوحة

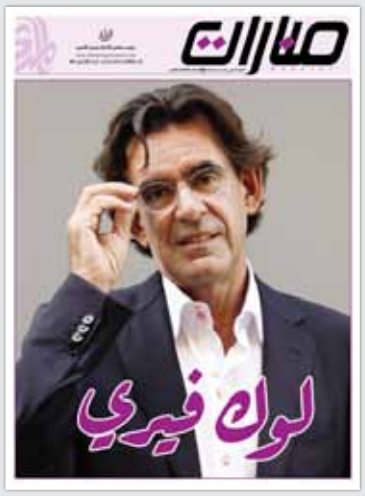

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

لوك فيري يحلل أزمة كورونا:

لايمكننا إنكار أننا نعيش اليوم في أزمة سلطة

الوحشية والكراهية هما ثمن التقدم الذي ندفعه اليوم

ترجمة:عدوية الهلالي

ربما سيكون الدرس الأهم الذي يمكننا استخلاصه من أزمة فايروس كورونا، هو إنه، ولأول مرة في تاريخ المجتمعات الليبرالية، تم وضع الحياة فوق الاقتصاد.. هذا مايراه الفيلسوف الفرنسي لوك فيري الذي ولد عام ١٩٥٢، وهو يحمل الدكتوراه في العلوم السياسية وشغل منصب وزير التربية والتعليم في فرنسا في عهد رئيس الوزراء جون بيير رافاران مابين ٢٠٠٢ و٢٠٠٤، وهي الفترة التي قاد خلالها نضالاً نشطاً ضد الأمّية، كما أنه واحد من الفلاسفة الجدد الذين أحدثوا تحولاً عميقاً في الأوساط الفلسفية السائدة، برموزها المعروفة أمثال جاك دريدا وجاك لاكان وجيل دولوز وميشيل فوكو، وقد تم ترجمة العديد من أعماله الى أربعين لغة..وفي حوار أجرته معه صحيفة (لاسمين) الفرنسية تحدث عن العديد من النقاط الهامة منها تلك الاخطاء الجسيمة التي ارتكبها الحكام عندما تساهلوا مع تطبيق الإجراءات الصحية مثل ارتداء القناع والتباعد الاجتماعي ومضاعفة الاختبارات بعد أن دفع الاحتجازالمنزلي البعض الى الجنون فقرروا تحدي تلك الإجراءات – حسب رأيه-..

×ستعود العديد من الدول الى فرض ارتداء القناع، هل توافق على هذا الإجراء؟

– القناع في الأماكن المغلقة ضروري إذا أردنا تجنب الموجة الثانية التي ستكون أكثر كارثية من الموجة الأولى. الآن، من الواضح أن كل شيء يعتمد على مكان فرضه، ففي الهواء الطلق، عندما يتعلق الأمر بالمدن، تصبح الحاجة إليه ماسة في شوارع المشاة الضيقة والمزدحمة كالأسواق،، لكن بالتأكيد ليس في أي مكان، على سبيل المثال ليس في الحدائق الكبيرة أو الطرق الواسعة أو الشواطئ. على أي حال، أنا أرفض التحديات المجنونة وأؤيد ما يوصي به الغالبية العظمى من العلماء.

×هل ستؤدي هذه الأزمة الصحية الى تفاقم العنف وانعدام الأمن في حالة رفض المواطنين الانصياع للقوانين؟

–لاترتبط هذه الوحشية التي لا تطاق بالأزمة الصحية على وجه الخصوص، وعلى الرغم من الغباء وعدم التحضر الذي يرافقها، ففي عام ٢٠١٧، تم ارتكاب ٦٣١،٢٨٣ عملية عنف بمتوسط ٧٧٧هجوما يوميا،ولاتزال النسبة تزداد سنويا بسبب أعمال كراهية وعدوانية كامنة، إذ يمكن أن يصيب هذا العنف "غير المبرر" أي شخص في أي مكان، ولكنه يمارس في المقام الأول ضد أي شخص يمثل سلطة ما مثل رئيس شركة، أورجال الاطفاء، وسائقي الحافلات،، والمعلمين، ولكن قبل كل شيء ضباط الشرطة، كما رأينا في التجاوزات التي رافقت جميع التظاهرات منذ ثلاث سنوات..كيف نفسر ذلك اذن؟ لا يمكن إنكار أننا نعيش اليوم في أزمة سلطة، أزمة لم يكن لها مثيل في الماضي. في رأيي، هذا هو تأثير اتجاه رئيسي وصفته لسنوات في كتبي، وهو النتيجة النهائية لقرن كامل، من وجهة نظر نقد القيم والسلطات التقليدية، فقد قمنا مثلا بتفكيك كل القواعد التقليدية للفن الحديث ثم المعاصر، أما بعيدًا عن المجال الفني، فقد اهتزت لدينا القيم والأخلاق سواءً كنا متدينين أو علمانيين أو جمهوريين..كان تفكيك التقاليد هذا في نهاية المطاف نتيجة لذلك "التدمير الخلاق" الذي أظهر شومبيتر أنه المنطق الأساسي للرأسمالية.. وهذا هو "ثمن التقدم" الذي ندفعه اليوم بانفجار بعض الوحشية والكراهية في أدنى فرصة.

×هل تفهم هذا المجتمع الذي احترم الاحتجاز في البداية ثم تمرد عليه؟

–يقع قدر كبير من المسؤولية على الحكومة في عدم احترام القواعد، ولكنها أيضًا مسؤولية بعض المثقفين أو الأشخاص الذين أدلوا بتصريحات تآمرية بالمعنى الدقيق للكلمة والتي عززت للأسف الحركات المناهضة للأقنعة...فعلى مدى اسابيع، أخبرتنا الحكومة بقيادة جيروم سالومون وأوليفييه فيران أن الأقنعة غير مجدية تماماً، بل وخطيرة..وفي الشهر التالي، أوضحوا لنا أن هذه الأقنعة ضرورية، ولا بد من ارتدائها. إنني أنقل هنا التصريحات السخيفة للمتحدث باسم الحكومة فكيف تتوقع أن لا يقتنع عدد من الأشخاص الضعفاء أو المختلين بأن القناع عديم الفائدة، بل وخطير، وأنه وسيلة لانتهاك حرياتنا؟ لقد عمل المفكر والفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين مثلاً على تصدير خطابه الذي يقول إن الدول استنفدت وسيلة الإرهاب كمبرر لاتخاذ تدابير استثنائية فعمدت الى اختراع وباء يمكن أن يقدم ذريعة مثالية لتنفيذ إجراءات قتل الحرية! أنا اعتبرهذا الخطاب في منتهى الغباء، وقد نقله بعض المثقفين الفرنسيين على نطاق واسع بتغطية إعلامية قوية،بل ذهبوا إلى حد الإشادة بشجاعته ووضوحه. انه أمر مروع!

×كوزير سابق للتربية، كيف ترون بداية العام الدراسي؟، ماذا ستقول للأطفال وآبائهم ومعلميهم؟

–لفهم ما يجب القيام به في حالة حدوث موجة ثانية، علينا أن ننظر إلى الخطأ الذي حدث في الموجة الأولى. وغني عن القول أنه كان علينا أن نكون قادرين على تطبيق القواعد الصحية الأساسية. صحة أطفالنا وأولياء أمورهم ومعلمينا غير قابلة للتفاوض. ولكن كان من الضروري أيضاً أن تكون الدولة قادرة على تلبية المبدأ الأساسي للمساواة الاجتماعية، وبعبارة أخرى أن تضع نفسها في وضع يتيح لجميع الآباء الذين يرغبون في ذلك إمكانية وضع أطفالهم في المدرسة في ظروف مقبولة.

×هل علينا أن نتعلم كيف نعيش طويلاً مع الفايروس؟

– في حالة حدوث موجة ثانية، سيكون ذلك ضرورياً بأي ثمن، علينا تجنب الحجر المنزلي، وهو أمر ممكن تماماً إذا وافق الناس على احترام التعليمات الصحية وارتداء الأقنعة.. إذا دخلنا في الحجر مرة أخرى، فلن يتعافى الاقتصاد. سوف يرحب بذلك المناهضون للرأسمالية، لكنه سينتج آلاف حالات الإفلاس، وبالتالي مئات الآلاف من العاطلين عن العمل. وهذا هو السبب في أنه من الضروري أن نتعلم الآن احترام التدابير الصحية، وهي التدابير التي تدعو جميع حكومات العالم تقريباً الى الالتزام بها..

لوك فيري.. معنى السعادة

كه يلان محمد

قد تختلفُ طرائق المعيشة وأنماط الحياة وتتباين المُعتقدات بين الشعوب والمُجتمعات، وتتفاوت نظرة الأفراد بشأن المُعطيات الحياتية، لكن ثمة مُشتركات بقطع النظر عن وجود الاختلاف في الطبائع وأنساق التفكير، ولعلَّ السعادة من أبرزها، ولا مُغالاة في القول، أنَّ الهدف الأساسي وراء كل نشاطات الإنسان الفكرية والروحية والجسدية والحسية هو الوصول إلى السعادة وتقليص أسباب الشقاء.

يذهب باسكال أبعد من ذلك إلى حد يضعُ الانتحار ضمن المساعي اللاواعية لتحقيق السعادة، إن كان هناك توافق على المطلب فذلك لا يلغي التنوعَ في الآراء والتفسيرات حول العوامل التي تمكّنُ الإنسان من الوصول نحو السعادة.

هناك من يربطُ بين السعادة والمعرفة أو التخلص من الانفعالات بفضل التفكير العقلاني. يقولُ المفكرُ المغربي سعيد ناشيد إنَّ السعادة نعمة الحكماء، كما تكمنُ السعادةُ في حياة بسيطة لدى الفيلسواف إسبينوزا، والأغربُ في هذا السياق هو رأي الفيلسوف الألماني كانط، يقولُ صاحبُ "نقد العقل الخالص": "لو أرادت العناية الآلهية لنا السعادة ما منحتنا الذكاء"، وهذا يعني أنّ نقيض حكم المنطوق في كلام كانط هو أن السعادة تؤتى للأغبياء فقط.

أيًّا كان الأمرُ، فإنَّ موضوعة السعادة قد شغلت الجميع، وتوسل الإنسانُ بالبشارات الدينية تارة، وبما قالهُ الحكماءُ والفلاسفة تارة أخرى لاكتشاف درب السعادة وتذق طعمها، وأضيفَ العلمُ أيضًا إلى تلك الأدوات التي من المفترض أن تُساهمَ في تضيق الخناق على البؤس والمُعاناة، غير أنَّ تَفوق الذكاء الصناعي على الذكاء الإنساني في المستقبل، حسب توقعات الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكينغ، قد يُشكلُ تحديًا كبيرًا للبشرية. وبذلك قد ينقلبُ ما تراهُ مصدرًا للسعادة إلى سبب للشقاء.

أهمُ ما يعالجهُ الفيلسوف الفرنسي المُعاصر لوك فيري في كتابه المعنون بـ"مفارقات السعادة، سبع طرائق تجعلك سعيدًا" (دار التنوير 2018، ترجمة أيمن عبد الهادي) هو التناقضات الكامنة في الشعور بالسعادة، وقد أدرك الفيلسوف اليوناني سُقراط حقيقة هذا الأمر لذا اعتبر السعادة هي ما لا يعقبهُ الإحساسُ بالندم، ومن يندمُ أقل، ويأملُ أقل، ويحبُ أكثر فهو حكيم. بَرأي أندريه كومنت سبونفيل، لا يصحُ الحديثُ عن أسباب السعادة دون الإشارة إلى اللذة الحسية، خصوصًا ونحنُ في عصر تحولَ فيه الاستهلاكُ المتسرعُ إلى ظاهرة طاغية، بحيثُ تسلعنت الروحانيات أيضًا.

أكثر من ذلك تُقدمُ وصفات للسعادة كما تذاعُ برامجُ عن المأكولات والإرشادات الصحيةَ لتخفيض الوزن في آن واحد. فأصبحَ المُتابعُ نهبَ الإعلانات المُتناقضة. صحيح أنَّ فهم السعادة من منطلق الحسيات له جذور فلسفية تعودُ إلى الإبقوريين، غير أن ما يُغذي هذه النزعة في الوقت الراهن هو التيار الرأسمالي الذي جرّد اللذة من دلالاتها المرتبطة بالكينونة الإنسانية. فالمبدأ الأساسي للنفعية مضمونه أن الفعل يكون جيدًا على المستوى الأخلاقي حين يسعى إلى زيادة نسبة السعادة، وهذا مخالف لما ساد في عصر التنوير لاسيما لدى كانط من الاهتمام الأكبر بالعمل، وكانت السعادةُ بالنسبة لهؤلاء تأتي في المرتبة الثانية.

من نافلة القول الإشارةُ إلى أن السعادة حسب نظرة النفعيين هي اللذة الحسية فقط..يتوقفُ صاحبُ "أجملِ قصة للفلسفة" عند نجاح المؤلفات التي تتناول نظريات التنمية البشرية، وإعادة اكتشاف الحكمة الشرقية، وعلم النفس الإيجابي؛ ويستخلصُ من ذلك نتيجة مفادها أن المجتمعات الديموقراطية تدعمُ فكرة أنَّ السعادةَ صارت الواجب الجديد والهدف الوحيد للوجود الإنساني.

ومن ثُمَّ يشرحُ لوك فيري مؤثرات الثقافة الأمريكية وتحولها إلى موضة عالمية، راصدًا تقليدًا فلسفيًا جديدًا له تمثلات في المجتمع الأوروبي، يُسمي لوك فيري هذا النموذج بـ"أخلاقيات الأصالة"، وهي فلسفة قائمة على الربط بين السعادة ومسألة الانشغال بالذات. وفقًا لهذا المنهج، تكون السعادةُ غير مُحتكرة للأرستقراطية. كما يتساوى كل شيء ولا مجال للمُفاضلة بين المُجتمعات وتصنيفها إلى متخلفة ومتطورة، أو التمييز بين الموسيقى الراقية والمبتذلة، كما أنَّ كل النشاطات والممارسات الجنسية والأدبية تكتسبُ قيمتها وأخلاقياتها إذا تمثلتْ لمبدأ اللذة والرُفاهية. ومن الواضح أنَّ هذا إفراط في الفردانية. أشرنا سالفًا إلى تناقضات السعادة. وما يؤكدُ هذا هو دراسة الباحثين الأمريكيين بأنَّ معظمَ الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم سعداء يُصابون بأمراض عقلية تقودهم إلى نتائج كارثية. والحال هذه فإنَّ الهوس بالسعادة قد يتحول إلى مصدر للإحباط، جراء الامتناع عن تذوق الملذات والتحامل على النفس أكثر واغتراب البشر عن الحاضر.

ينقبُ الكاتبُ لوك فيري في متون النصوص الدينية والفلسفية والأسطورية للإبانة عن الرؤى المبثوثة في تضاعيفها حول مفهوم السعادة. وتتميزُ مقاربة لوك فيري بالمنهج التحليلي، ولا يكتفي بالوصف فقط، إذ يعارضُ خيار التخلي عن العالم الخارجي وعدم الارتباط بحجة هشاشة ما نستمدُ منه السعادة، فبرأي لوك فيري لا يمكنُ تعميم تجارب أفراد اختاروا العزلة والتنسك، وبالتالي لاجدوى من فكرة الرهبانية. يتخذُ مؤلفُ "تعلم الحياة" هذا الموقف دون أن يُنكرَ حَتْمية الموت والفناء البشري ومحدودية اللحظات السعيدة.

هنا من جديد يلجأ لوك فيري إلى الأبيقوريين الذين حثوا الإنسان على عدم تعقيد نمط الحياة بالتفكير في الموت، لأنَّ الموت لا وجود له ما دمت أنت على قيد الحياة، كما أنَّ هيراقلطس شخّص هذه الحالة بصيغة معبرة وقال بأن الإنسان لا يستطيعُ مواجهة الموت والشمس مباشرة، لذلك من الأفضل أن لا تمضي في تفسير لغزه إلى أن ينشب أنيابه، ويقرُ الفيلسوف التربوي بوجود جانب مظلم في الواقع وقساوة الظروف التي يعيشُ فيها المرءُ، وأن كل لذة تحمل نقيضها، غير أنه يتمسك بالواقع بمراراته وقساوته ويميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ اختبار صعوبة الحياة وخيباتها هو ما يريحُ الإنسان أكثر من الركون إلى الوهم.

يُفردُ لوك فيري فصلًا كاملًا من مُؤلَفه للحب بوصفه مصدرًا للسعادة. ويعالجه من منطلق المؤمنين وغيرهم من الذين ينتهي رهانهم في هذه الحَياة. موضحًا دلالة الحب الدينية ما يعنيه من الحلول في المحبوب بينما أن السعادة الناجمة من الحب الحسي مؤقتة، وهنا يقتبسُ لوك فيريعبارة لويس آراغون "لا يوجد حب سعيد"، وحتى لا يلتبسُ الفهمُ لدى المتلقي، يؤكدُ لوك فيري أن حياة النُسّاك هي رفض للعيش أكثر من كونها تطبيقًا للحكمة، لافتًا إلى ضرورة التفريق بين الفرح وهو حقيقي ولكنه زائل، وبين السعادة التي تنشدُ الأبدية وهي ليست إلا وهمًا، كأنه بذلك يردُ على نيتشه الذي رأى بأن كل فرحة تبحثُ عن الخلود.

من أسباب الشعور بالسعادة حسب مُحَددات صاحب "ثورة الحب" هو الإعجاب، ولكن هناك إشكالية فيما يتعلقُ بهذا الموضوع لأنَّ الإنسان المُعاصر يعيشُ في زمن غروب الأيدولوجيا والبطولة الكارزمية، وغياب ما يجدرُ بالتضحية من أجله، وما يحلُ مكان المفاهيم النضالية والأطروحات الخلاصية هو الحب والعدل والجمال، وفقًا لما يذهب إليه لوك فيري.

يزيدُ لوك فيري على ما سبق ذكره، الحرية والتعلم والإبداع وتوسع أفق التفكير والانعتاق من مشروطية القومية، والانفتاح على المغاير والمُختلف، كما يكرسُ الفصل الأخير لتناول الوضع التعليمي في بلده فرنسا، ويحكي جانبًا من تجربته في هذا المجال عندما كان وزيرًا للتربية والتعليم، مبينا أن التهاون في التدريس قد أدى إلى تراجع مستوى الدارسين، وأن إلغاء العلامات في الفصول الدراسية قد أتى بنتائج مخيبة.

يُذكر أنَّ أسلوب هذا الكتاب بشأن السعادة يتصفُ بالتشويق والبساطة، وذلك بفعل ما يعتمدهُ لوك فيري من المقارنة بين الخطابات المتعددة.